

Sobh

1454

190

نَفْحُ الطَّيِّبِ
مِنْ

غَضَنِ الْأَنْدَلِسِ الرَّطِيبِ

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد القرني التيساني

"ell agcurri"

حنقه

الدكتور احسان عباس

المجلد الأول

1968

دار صادر
بيروت

وقد يقال : لا منافاة بينهما ، فإن المنصور أجاب بالأبيات ، وهل هو قائلها أم لا ؟ الأمر أعم ^١ ؛ فبيّن هنا ، والله أعلم .

وقال بعض مؤرخي المغرب ^٢ : إن الحاجب المصحفى حصل له في هذه النكبة من الهلع والجزع ما لم يظن أنه يصدر من مثله ، حتى إنّه كتب إلى المنصور ابن أبي عامر يطلب منه أن يقعد في دهليزه معلماً لأولاده ، فقال المنصور بدهائه وحذقه : إن هذا الرجل يريد أن يحط من قدري عند الناس ، لأنهم طالما رأوني بدهليزه خادماً ومسلماً ^٣ ، فكيف يروونه الآن في دهليزي معلماً ؟! وكان المنصور يذهب به بعد نكبته معه في غزواته ، حتى إنّه حكى بعضهم أنّه رأى الحاجب المصحفى في ليلة نهى المنصور فيها الناس عن إيقاد النيران تعمية على العدو الكافر ، وهو ينفخ فحماً في كانون صغير ويخفيه تحت ثيابه ، أو كما قال ، فسبحان مدبّر الدول ، لا إله إلاّ هو ، فإن هذا المصحفى بلغ من الجلالة والعظمة والتحكم في الدولة المدة المديدة أمراً لا مزيد عليه ، والله وارث الأرض ومنّ عليها وهو خير الوارثين .

ولقد ذكر بعض العلماء ^٤ المغاربة أن من أعاجيب انقلاب الدنيا بأهلها قصة المنصور بن أبي عامر مع الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى . ولم يزل أعداء المنصور بن أبي عامر يترتبصون به الدوائر ، فغلب سعدّه الذي هو المثل السائر ، وربما همس بعض الشعراء بهجوه وهجو الدولة جميعاً إذ قال ^٥ :

اقتَرَبَ الوعدُ وحان الهلاكُ وكلُّ ما تحذره قد أتاكُ
خليفة يلعبُ في مكتبٍ وأمه حُبلى وقاضٍ بناكُ

١ يقترح فليشر أن تقرأ « الأمر أعمى » أي مبهم غامض .

٢ قارن بما أورده ابن عذاري ٢ : ٣٩٩ - ٤٠٠ .

٣ ج : ومعلماً .

٤ ك : بعض علماء .

٥ ابن عذاري ٢ : ٤١٨ .

يعني بالخليفة هشاماً المؤيد لكونه كان صغيراً ، وأمه صبح البشكنسية كان الأعداء يتهمون بها المنصور ، وذلك بهتان وزور ، وأفطع منه رميهم القاضي بالفجور ، والله عالم بسرائر الأمور ، ونعوذ بالله من السنة الشعراء الذين لا يراعون إلاّ ولا ذمة ، ويطلقون ألسنتهم في العلماء والأئمة ، ومن كان حاسداً لمن بات في نعمائه يتقلب^١ ، جدير بأن لا يدرك ما يؤمل ويتطلب ، لأنه يعترض على الله سبحانه في أحكامه ، نعوذ بالله من شر أنفسنا ومن شر كل ذي شر ، بجاه نبينا عليه أزكى صلوات الله وأفضل سلامه .

وقد قدّمنا أن المنصور بن أبي عامر كان أولاً يخدم جعفر بن عثمان المصحفي مدبر مملكة هشام المؤيد ، ويريه النصيحة ، وأنه ما زال يستجلب القلوب بجوده وحسن خلقه ، والمصحفي ينفرها ببخله وسوء خلقه ، إلى أن كان من أمره ما كان ، فاستولى على الحجابة ، وسجن المصحفي ، وفي ذلك يقول المصحفي^٢ :

غَرَسْتُ قُضِيّاً خِلْتُهُ عُدُوَ كَرَمَةٍ وَكُنْتُ عَلَيْهِ فِي الْحَوَادِثِ قِيَمًا
وَأَكْرَمُهُ دَهْرِي فَيَزْدَادُ خُبَّتُهُ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَصْلِ كَرِيمٍ تَكْرَمًا
ولما يش المصحفي من عفو المنصور قال^٣ :

لِي مُدَّةٌ لَا بَدَّ أَبْلُغُهَا فَإِذَا انْقَضَتْ أَيَامُهَا مَتٌ
لَوْ قَابَلْتَنِي الْأُسْدُ ضَارِيَةً وَالْمَوْتُ لَمْ يَقْرُبْ لَمَّا خِفْتُ
فَانْظُرْ إِلَيَّ وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ فِي مِثْلِ حَالِكَ أَمْسَ قَدْ كُنْتُ
وَمَنْ أَحْسَنَ مَا نَعَى بِهِ نَفْسَهُ قَوْلُهُ حَسْبَمَا تَقْدِمْ^٤ :

١ أخذه من قول الشاعر :

وأظلم أهل الأرض من كان حاسداً لمن بات في نعمائه يتقلب

٢ الذخيرة ٤ : ٥٢ .

٣ الحلة السراء ١ : ٢٦٧ والذخيرة ٤ : ٥١ .

٤ الحلة : لم يقدر ؛ الذخيرة : لم يدن . ٥ انظر ما سبق ص : ٥٩٣ .

صبرتُ على الأيام حتى تولتُ وألزمتُ نفسي صبرَها فاستمرتُ
فوا عَجَبًا للقلبِ كيف اعترافهُ وللنفسِ بعدَ العزِّ كيف استدلَّتْ
وما النفسُ إلا حيثُ يجعلُها الفتي فإن طَمِعَتْ تاقَتْ وإلا تَسَلَّتْ
وكانتُ على الأيامِ نفسي عَزِيزَةً فلما رأَتْ صَبْرِي على الذلِّ ذَلَّتْ
فَقُلْتُ لها يا نفسُ موتي كريمةً فقد كانتِ الدنيا لنا ثم وَلَّتْ

وأنشد له الفتح في المطمح ، ونسبهما غيره لأحمد بن الفرج صاحب
الحدائق^١ :

كَلَمْتَنِي فَقُلْتُ دُرٌّ سَقِيطٌ فتَأَمَّلْتُ عَقْدَهَا هَلْ تَنَاقَرُ
فازدَهاها تَبَسُّمٌ فَأَرَتْنِي نَظْمَ دُرٍّ مِنَ التَّبَسُّمِ آخِرُ

وله كما مرَّ^٢ :

صفراءُ تُطْرَقُ في الزجاجِ ، فإن سَرَتْ في الجسمِ دَبَّتْ مِثْلَ صِلٍّ لَادَغِ
خَفِيتُ عَلَى شُرَّابِهَا فَكَأَنَّمَا يَجِدُونُ رِيًّا مِنْ إِنَاءِ فارَغِ
وله :

يا ذا الذي أودَعَتِي سِرَّهُ لا تَرُجُ أَنْ تَسْمَعَهُ مِنِّي
لم أَجِرْهُ بَعْدَكَ في خَاطِرِي كَأَنَّهُ ما مَرَّ في أُذُنِي

وأنشد له صاحب بدائع التشبيهات^٣ :

سَأَلْتُ نُجُومَ اللَّيْلِ هَلْ يَنْقُضِي الدُّجَى فخطَّتْ جواباً بالثَرِيَّا كَخَطِّ لا

١ الحلة : ٢٦٠ والتشبيهات واليتمية وممالك الأبصار ، ولكن لم يوردهما صاحب المطمح .

٢ الحلة والتشبيهات واليتمية ؛ وقد مرَّ ص : ٥٩٤ .

٣ لعل المعنى هنا كتاب الفرائد في التشبيه لابن أبي الحسين القرطبي ، والأبيات في الحلة : ٢٥٩ والتشبيهات لابن الكثاني .

وَكُنْتُ أَرَى أَنِّي بَأْخِيرٍ لِبَلَّتِي فَأُطْرِقُ حَتَّى خَلَيْتُهُ عَادَ أَوَّلًا
وَمَا عَنِّي هَوًى سَامَرَتْهَا ، غَيْرَ أَنِّي أَنَا فِسْهُهَا الْمَجْرَى إِلَى طَرُقِ الْعَلَا

* * *

[المصحف العثماني بقرطبة]

رجع : وكان كما تقدم بقرطبة المصحف العثماني ، وهو متداول بين^١
أهل الأندلس ، قالوا ثم آل أمره إلى الموحدين ، ثم إلى بني مرين ، قال
الخطيب ابن مرزوق في كتابه « المسند الصحيح الحسن »^٢ ما ملخصه : وكان
السلطان أبو الحسن لا يسافر^٣ إلا ومعه المصحف الكريم العثماني ، وله عند أهل
الأندلس شأن عظيم ، ومقام كبير ، وكيف لا ؟ قال ابن بشكوال : أخرج
هذا المصحف من قرطبة وغرب منها وكان بجامعة الأعظم ، ليلة
السبت حادي عشر شوال سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة في أيام أبي محمد عبد
المؤمن بن علي وبأمره ، وهذا أحد المصاحف الأربعة التي بعث بها عثمان رضي
الله تعالى عنه إلى الأمصار : مكة ، والبصرة ، والكوفة ، والشام . وما قيل
إن فيه دم عثمان هو بعيد ، وإن يكن أحدها فلعله الشامي ، قاله ابن عبد الملك .
قال أبو القاسم التجيبي السبتي : أما الشامي فهو باقٍ بمقصورة جامع بني أمية
بدمشق المحروسة ، وعايته هناك سنة ٦٥٧ ، كما عاينت المكي بقبة اليهودية ،
وهي قبة التراب ، قلت^٤ : عاينتهما مع الذي بالمدينة سنة ٧٣٥ وقرأت فيها ،
قال النخعي : لعله الكوفي أو البصري . وأقول : اختبرت الذي بالمدينة والذي

١ ق ط ج ودوزي : وهو متواتر عند .

٢ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق التلمساني الأصل (- بعد ٧٨٠) من أكابر رجال الدولة
المرينية ، وسيترجم له المقري ترجمة طويلة وانظر الديباج المذهب : ٣٠٥ ونيل الابتهاج : ٢٦٧
وتاريخ ابن خلدون ٧ : ٣١٢ والتعريف بابن خلدون : ٤٩ ؛ وكتابه هذا في مناقب السلطان
العظيم أبي الحسن المريني .

٣ ك : يسافر موضعاً .

٤ هذا تعليق ابن مرزوق .